# الإعجاز البياني في ترتيب المعاني

## دراسة جديدة في الذكر الحكيم


إعداد

**أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد**

أستاذ البلاغة والنقد المتفرغ بكلية اللغة العربية بالقاهرة، وعميدها الأسبق،
ورئيس جامعة الأزهر السابق



١٤٤٢هـ = ٢٠٢٠م

# الإعجاز البياني في ترتيب المعاني دراسة جديدة في الذكر الحكيم

إبراهيم صلاح الهدهد
قسم البلاغة، كلية اللغة العربية بالقاهرة، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية.
البريد الاليكتروني: drelhodhod@yahoo.com

**ملخص البحث :**

يتناول هذا البحث لونا بلاغيا في الذكر الحكيم، يجتهد في الكشف عن وجوه إعجازه من حيث بلاغته القرآنية، وهذا الدرس لم ينل حظه من البحث، والترتيب الذي يُعنى هذا البحث بالكشف عن بلاغته هو ترتيب جريان المعنى الواحد في سور الذكر الحكيم، والبيان عن أسرار هذا الترتيب، ويعد هذا البحث أول طارق هذا الباب، وقد تناول بلاغة الترتيب من زوايا عدة :

الترتيب التصاعدي للمعنى في سور الذكر الحكيم على ترتيب المصحف، وقد أوردت له شواهد عدة، ثم الترتيب التنازلي للمعنى، ثم ترتيب العموم والخصوص، وقد أوردت شواهد لكل نوع من هذا الترتيب، ولقد كان السبيل إلى كشف ذلك هو تدبر التراكيب في المعنى الواحد، والتأمل في فارقاتها للعبور من سر التركيب إلى استظهار وبلاغة الترتيب.

الكلمات المفتاحية: إعجاز القرآن – البلاغة القرآنية – الذكر الحكيم – الإعجاز

# The graphic miracle in the order of meanings a new study in the wise male

Ibrahim Salah Al-Hodhod
Rhetoric Department, Faculty of Arabic Language in Cairo, Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt.
Emaile : drelhodhod@yahoo.com
Keywords: The Miracle of the Qur'an- Quranic Rhetoric - The Holy Quran- Miracles

## Abstract

This research deals with a rhetorical color in the wise male He strives to reveal the faces of his miracle in terms of his Qur'anic eloquence And this lesson didn't get his luck from research.

The order in which this research is concerned with the disclosure of its eloquence is the order of the flow of the same meaning in the wall of the wise male And the statement about the secrets of this arrangement

This research is the first tarek this section, has addressed the eloquence of the arrangement from several angles:

The ascending order of meaning in the surat al-Hakim on the order of the Qur'an I've given him several evidence Then the descending order of meaning, then the order of the commons and the private I have provided evidence for each type of arrangement And the way to reveal this was to manage the compositions in one sense. And meditating on its differences to cross from the mystery of composition to the recitation and eloquence of the arrangement

## مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين، أنزل على عبده الكتاب، فجرت آياته في القلوب مجرى السحاب، وسحر بإعجازه الألباب، وأخرس الشقاشق، وأعجز كل ناطق، وكان ولايزال وسيبقى منيعا على كل طامع، شجى في حلوق الكارهين، ولظى على الكافرين، وغيظا للحاسدين، هو الحمى للمؤمنين، والحصن للمسلمين، وملاذ اللائذين، نحمد الله أن جعلنا أهل القرآن، من عباد الرحمن، نحمد الله أن جعلنا من خدّامه، ومنّ علينا بجعلنا من طلبته، الذائدين عن حياضه، وأصلي وأسلم على أشرف الخلق، سيد الأنام، سيدي رسول الله ـ صلى الله عليه وعلى آله وسلم– وبعد؛

فهذا درس جديد في الذكر الحكيم يؤكد أن ترتيب المصحف بتوقيف من الله ـ عز وجل ـ وأن سوره وآيه كما هي في المصحف الشريف تتأبّى على التقديم والتأخير، وأن البلاغة قاضية بذلك، وهذا البحث قائم على ترتيب المصحف لا ترتيب النزول لأن ترتيب النزول كان لعلل وضحتها أسباب النزول، وأحوال سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته ـ رضوان الله عليهم أجمعين–، وقد رصدت السيرة الشريفة، والسنة المطهرة هاتيك الأحوال، وتقوم هذه الدراسة على تتبع المعنى الواحد في الذكر الحكيم حسب ترتيب المصحف، ثم تتدبر فارقات التراكيب لتنفذ من تأملها إلى روعة الترتيب وبراعته،

بحيث يفسد عمود المعنى ونظامه لو اختلف هذا الترتيب، ولأنه أول بحث يطرق هذا الباب قام على الاصطفاء لا على الاستقراء لعله يفتح بابا جديدا من البحث والدرس في كتاب الله ـ عز وعلا ـ فيكون أفقا من آفاق إعجاز القرآن الكريم والله أساله السداد والرشاد، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته.

وكتبه

إبراهيم صلاح الهدهد

## تمهيد

بذل علماء المناسبات جهدا مشكورا لتأكيد بلاغة الترتيب ببيان المناسبات، وهو علم عزيز قل واردوه، وعز مصنفوه، وقد ذكر البقاعي (ت/ ٨٨٥هـ) في مقدمة نظم الدرر أن علم مناسبات القرآن : علم تعرف منه علل الترتيب، وموضوعه أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ماله بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب" وذكر الزركشي (ت/ ٧٩٤هـ) في البرهان في النوع الثاني منه علم المناسبة مبينا قلة اعتناء المفسرين به لدقته، وقد بين أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول وذكر الفخر الرازي في تفسيره :أن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيب والروابط" وقال أيضا في نهاية تفسير سورة البقرة: ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وبدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته" وقال أبو بكر بن العربي (ت/ ٥٤٣هـ) في كتابه سراج المريدين : ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله ـ عز وجل ـ لنا فيه فلما لم نجد له حمَلَة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه" ونقل البقاعي عن ولي الله محمد بن أحمد الملوي المنفلوطي (ت/ ٧٧٤هـ) أنه قال: قد وهم من قال: لا يطلب للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصل الخطاب أنها على

حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر" ولابن الزبير الثقفي (ت/ ٨٠٧هـ) كتاب في تناسب السور سماه البرهان في تناسب سور القرآن، وللسيوطي (ت/ ٩١١هـ) كتاب سماه : تناسق الدرر في تناسب السور، الذي أساء محققه فسماه أسرار ترتيب القرآن على غير الحقيقة، وقد انتهى البقاعي إلى أن "للإعجاز طريقين: أحدهما: نظم كل جملة على حيالها بحسب التركيب، والثاني: نظمها مع أختها بالنظر إلى الترتيب". وقد أبصرنا وعورة البحث في هذا الباب، لكن نتائجه نافعة ماتعة.

وما يضمه هذا البحث نظر إلى ترتيب من نوع آخر لا أعلم أحدا من أهل العلم عرض له، وهو ترتيب المعاني في الذكر الحكيم، وهو باب من البحث يفضي إلى التأكيد على أن ترتيب المصحف بتوقيف من الله ـ عز وعلا ـ وهو الراجح عند أهل العلم كما ذكر الزركشي وغيره وهو قائم على تتبع جريان المعنى الواحد في المصحف الشريف، وتدبر تراكيب المعاني للنفاذ إلى سر ترتيبها في المصحف الشريف.

هذا ويعد هذا البحث أول فتح في هذا الباب، لذا قام على شواهد، ولحظ فيها أن من وجوه الترتيب التي وقع عليها من خلال تأمل هذه المعاني، الترتيب التصاعدي حيث لحظنا أن المعنى يأخذ طريق الصعود ليصل من الأقل في التعبير عن المعنى إلى الأكثر، كما لحظنا في معاني أخر أن ترتيب المعنى يقع على وجه الترتيب التنازلي ليصل

بالمتدبر من الذروة نزولا من المعنى الأكثر إلى الأقل، ولحظنا أيضا في معاني أخر، أن المعنى يبدأ بالأعم ثم ينتهي إلى الأخص، وفي كل صور الترتيب يقع كل وجه من المعنى ملائما سياق السورة، محققا مقصودها، ويمكن أن تكون هناك وجوه أخرى لترتيب المعنى كالإجمال والتفصيل والتضاد وغير ذلك مما لم يقع لي، ربما يكون هذا البحث فتحا لباب جديد من أبواب الإعجاز البلاغي في الذكر الحكيم.

## المبحث الأول: الترتيب التصاعدي للمعنى

### إعجاز الترتيب في معنى حسرة الكافرين على ضياع أعمالهم في الآخرة

وردت صورة ضياع أعمال الكافرين في أربع سور من الذكر الحكيم هي على هذا الترتيب (آل عمران ـ إبراهيم ـ النور ـ الفرقان)

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ آل عمران: ١١٦ - ١١٧

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ إبراهيم: ١٨

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ النور: ٣٩ - ٤٠

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ الفرقان: ٢٣

الآيات الكريمة على هذا الترتيب في المصحف الشريف، وعند تدبر صورة الأعمال وما تكون عليه يوم القيامة في سورة آل عمران نرى

الأعمال حرثا هالكا ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ بسبب الريح ذات البرد الشديد، فهي صورة لأول الضياع وفيه من الحسرة ما فيه، وفي سورة إبراهيم صار الحرث بعد الحرق رمادا اشتدت به الريح في يوم عاصف ،﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾

فهي تلي الصورة السابقة؛ لأن الرماد أثر الإحراق ونتيجته، وفي سورة النور صارت الأعمال بعد كونها رمادا تطيح به الرياح سرابا ﴿كَسَرَابٍ﴾ وهي نتيجة تطويح الريح العاصف للرماد في سورة إبراهيم، ثم صارت في سورة الفرقان هباء لا يبقى منه شيء مشاهد لكونه منثورا، ﴿هَبَاءً مَنْثُورًا﴾، وما من ريب في أنك تبصر المعنى يتصاعد من البدء إلى الانتهاء كما تجليه صورة الأعمال، وربما تتساءل لم رتب المعنى هذا الترتيب؟ ولم لم يجمع في سورة واحدة؟ والجواب أن توزيع التحسير أشد إيلاما، فضربة واحدة لا تؤلم كضربات كثيرة، كما أن في ذلك شفاء للمؤمنين، كما أن التوزيع يحتاج تدبرا أعلى، والتوزيع من آياته أيضا الإعلان عن الترتيب المعجز للمعاني في الذكر الحكيم، الذي كان مبتداه من سورة آل عمران ومنتهاه سورة الفرقان، وسورة آل عمران مقصوده التوحيد الذي لاح به مطلعها ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ والتوحيد هو الذي به تقبل الأعمال وتحصل منازل الأجر والثواب، وسورة الفرقان التي جاءت للتفريق بين الملتبسات وتميز الحق من الباطل، فتدبر بدء المعنى ومنتهاه أين وقع، ليلوح لك جلال الترتيب وجمال التركيب وروعة الموقع.

**إعجاز الترتيب في هيئة خروج الناس من القبور عند البعث**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ يس: ٥١

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾ القمر: ٦ – ٧

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ المعارج: ٤٣ – ٤٤

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ ﴾ الانفطار: ٤

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ ﴾ العاديات: ٩

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ ﴾ القارعة: ٤

جاء هذا المعنى في ست سور من الذكر الحكيم هي على ترتيب المصحف (يس ـ القمر ـ المعارج ـ الانفطار ـ العاديات ـ القارعة) في سورة يس ذكر ﴿ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ جمع جدث وهو القبر ، وقع الفعل ﴿يَنسِلُونَ﴾ ومعناه: يمشون مشيا سريعا، دون تصوير لهيئة هذا المشي السريع، وفي سورة القمر صورت هيئتهم عند الخروج، فهم في صورة تشبه صورة الجراد المنتشر، في التزاحم ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾ عند الخروج من القبور، فهي صورة تلي الصورة التي أجملتها سورة يس، وفي سورة المعارج، ركزت الصورة على هيئة إسراعهم، فهم يمشون سريعا كأنهم يتسابقون في الوصول إلى علم منصوب، كما

كانوا يسرعون في الدنيا إلى أصنامهم التي ينصبونها للعبادة، وهي صورة السير وهيئته، فهي تلي هيئة الخروج، ثم جاءت سورتا الانفطار والعاديات معلنتان عما ينتهي إليه السير السريع المشبه التسابق من البعثرة، وترى الترتيب لائحا في الانفطار والعاديات، فالقبور في الانفطار بعثرت، وما في القبور في العاديات هو الذي بعثر ، فالقبور تبعثر أولا، وما فيها يبعثر ثانيا، فهما على تقاربهما ترى ترتيب المعنى وتصعيده لائحا، فالبعثرة تفريق وتشتيت، وهو غير التماسك والإسراع في المعنى السابق، وهو تمهيد للمعنى النهائي الذي جاء في سورة القارعة ﴿ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ ﴾ وقد ذكر الكرماني معنى ذلك فقال: شبههم بالفراش التي تطير من هنا ومن هنا ولا تجري على سمت واحد وهي همج يجتلبها السراج، وهو المناسب للبعثرة المذكورة في العاديات قبلها، فجاء التشبيه مصورا لهيئة البعثرة، ومن شدة ضعفه وصف باسم المفعول، عكس ما وصف به الجراد في سورة القمر، فكما تبصر المعنى مبتداه من سورة يس، التي مقصودها ـ كما ذكر البقاعي ـ إثبات الرسالة التي هي روح الوجود وقلب جميع الحقائق، وذلك المقصود يلائمه ابتداء المعنى، ومنتهاه في سورة القارعة التي مقصودها ـ كما ذكر البقاعي ـ إيضاح يوم الدين بتصوير ثواني أحواله في مبدئه ومآله وتقسيم الناس إلى ناج وهالك، واسمها القارعة واضح في ذلك.

**إعجاز الترتيب في معنى نعمة الشمس:**

ورد تصوير نعمة الشمس في موضعين من كتاب الله، الموضع الأول أنها سراج، والموضع الثاني أنها سراج وهاج

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ نوح: ١٥ - ١٦

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ النبأ: ١٣

الترتيب التصاعدي بيّن، فنحن نبصر أن القرآن الكريم وصف الشمس بأنها تشبه السراج في سورة نوح ـ عليه السلام ـ وهي السابقة في ترتيب المصحف على سورة النبأ، والتراكيب في سورة نوح متجهة لبيان مقصودها وهو " الدلالة على تمام القدرة على ما أنذر به آخر (سأل) من إهلاك المنذرين وتبديل خير منهم"[(١)]، وكان التذكير بنعم الله مرتكز إنذارهم من الآية الحادية عشرة إلى نهاية الآية العشرين، فقيدت النعم بأعلى ما تؤديه فالقمر نور والشمس سراج، والأرض بساط وهكذا، وجاء نمط التذكير أوجز ما يكون وأبلغه في السورة الكريمة.

أما الأمر في سورة النبأ فمختلف حسب اختلاف مقصود السورة، لكن الحديث عن نعمة الشمس ورد في السورتين في سياق متقارب وهو التذكير بالنعم، لكن النعم المذكورة في سورة النبأ أكثر وأغزر، وجاء التذكير بها على الاستفهام التقريري، وبنظرة عجلى في النعم المذكورة في السورتين يتبين الفرق فالسموات طباق في نوح وهي سبع شداد في

(١)نظم الدرر ٨/ ١٦٢

النبأ، والجبال في النبأ أوتاد وليست مذكورة في نوح، والمطر مدرار في نوح وهو ماء ثجاج في النبأ، وهكذا يبدو لكل ذي بصر أن النهج الذي نهجته سورة النبأ يتخذ التصعيد في التذكير بالنعم طريقا يمضي عليه، ومن هنا جاء وصف الشمس في السورة بأنها سراج وهاج تلاؤما مع هذا التصعيد، واتساقا مع غرض السورة ومقصودها الذي هو الدلالة على أن يوم القيامة ثابت ثباتا لا يحتمل شكا ولا خلافا بوجه[1]، فجاء التقرير بالنعم اتساقا مع مقصود السورة ومطلعها المصدر باستفهام مفاده "تفخيم شأن ما يتساءلون عنه، كأنه لفخامته خفي جنسه فيسألون عنه"[2]، فقد جاء تصعيد المعنى على هذا الترتيب المعجز، واتسق كل نمط من البيان عن المعنى مع سياقه الذي غرس فيه، ومقصود السورة الذي جاء لتحقيقها.

(١) ينظر : نظم الدرر ٨/ ٤٩٢ .

(٢) أنوار التنزيل ٢/ ٥٣٢ .

**إعجاز الترتيب في معنى تصوير عجز الأصنام:**

ورد تصوير عجز الأصنام في موضعين من القرآن الكريم على هذا النحو:

قال تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾[1].

قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾[2].

تدبر هذين التصويرين يفضي إلى أن التشبيه الأول من سورة الرعد كاشف عن عجز الأصنام عن النفع، وأن الأصنام غاية في العجز عن النفع، وأنها في عجزها عن النفع، تشبه عجز الماء عن التحرك من مكانه والصعود إلى فم الظمآن، وأن الظمآن مهما بسط يديه إليه ليصعد إلى فمه فإنه لا يستجيب أبدا، مع شدة الحاجة، فالماء حياة، والظمأ حاجة شديدة، ولما كان هذا التشبيه مركزا على إبراز عجز الأصنام عن النفع اختار من العناصر ما يصور هذا المعنى، وأبرزه في معرض التهكم، ولك أن ترى الحسرة في (إلا) الاستثنائية، وكيف علقت بأفئدة الكافرين رجاء في نفع أصنامهم لهم؟ ثم أعقبت ذلك بالحسرة، ولك

(١) الرعد (١٤).

(٢) العنكبوت (٤١).

أن تنظر في جملة التشبيه (باسط) لترى تصوير حالهم في الحاجة إلى الماء على وجه الثبوت والدوام، ولو قال: يبسط لدل ذلك على انقطاع الحاجة إلى الماء وقتا. فعكس النظم صورة الإلحاح في طلب الماء، وفي ذلك مقابلة لحال المشركين في دعائهم أصنامهم وإلحاحهم عليها في طلب النفع واستمرار الأصنام في عدم الاستجابة؛ لانتفاء سماع الدعاء،((ولما أريد هنا نفي إجداء دعائهم الأصنام جعل نفي الإجابة متعديا بالباء إلى انتفاع أقل ما يجيب به السؤال وهو الوعد بالعطاء أو الاعتذار عنه فهم عاجزون عن ذلك، وهم أعجز عما فوقه، وتنكير شيء للتحقير))[1]، فأنت ترى النظم قد انتقي من العناصر اللغوية ما يصور عجز الأصنام عن النفع ويفهم من التشبيه خيبة الداعي وانتفاء حصوله على نفع، ومع ذلك فقد ذيل التشبيه بجملة تصرح بخيبة الداعي ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾، فالتشبيه كله ناف لأن تكون الأصنام بمثابة ما ينفع.

أما تشبيه العنكبوت فمقصوده تصوير عجز الأصنام عن الدفع، وحماية أنفسها، وحماية عابديها، وهو أشد العجز، وقال العلامة ابن عاشور: ((ولما بينت لهم الأشياء والأمثال من الأمم التي اتخذت الأصنام من دون الله فما أغنت عنهم أصنامهم لما جاءهم عذاب الله أعقب ذلك بضرب المثل لحال جميع أولئك وحال من ماثلهم من مشركي قريش في اتخاذهم ما يحسبونه دافعا عنهم وهو أضعف من أن يدفع عن نفسه بحال العنكبوت تتخذ لنفسها بيتا تحسب أنها تعتصم به

(١)التحرير والتنوير(١٣/ ١٠٩).

من المعتدي عليها فإذا هو لا يصمد))[١].

فالعجز عن النفع مرتبة، والعجز عن الدفع تصوير أعلى للعجز، فالعجز عن الحماية أقبح من العجز عن الرعاية، وإن كان كلاهما قبيحا، لكن الثاني أشد قبحا، فلاح للناظر في التصويرين الكاشفين عن عجز الأصنام أن المعنيين جاءا مرتبين ترتيبا تصاعديا، حيث وقع المعنى القبيح في سورة الرعد، والمعنى الأقبح منه في سورة العنكبوت وهي من بعد الرعد في المصحف الشريف بسور كثيرة، وسياق الأول تعديد النعم ونفع العابد للمعبود، كما يعلن عنه سياق سورة الرعد ومقصودها ، وسياق الثاني في إهلاك السابقين وحماية المؤمنين كما ينبئ عنه سياق سورة العنكبوت ومقصودها، وتشبيه الرعد قد اهتم بتصوير عجز الآلهة عن النفع وانتقى من العناصر اللغوية ما حقق هذا الغرض، وتشبيه العنكبوت قد اهتم بتصوير عجز الآلهة من دون الله عن الدفع والحماية لمعبوديهم، وانتقى من العناصر اللغوية ما حقق هذا الغرض.

(١) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٥٢).

**إعجاز الترتيب في تصوير إهلاك عاد قوم هود :**

وصف القرآن الكريم في موضعين منه صورة عاد قوم هود عند إهلاكهم، وجاء ترتيب هذا المعنى ترتيبا تصاعديا:

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[1].

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾[2].

نلحظ هاهنا أن تصوير إهلاكهم في سورة القمر، ركز على الاجتثاث والاستئصال، لذلك رأيت الفعل ﴿ تَنزِعُ ﴾ ورأيت اسم الفاعل (مُّنقَعِرٍ)، ثم إنك رأيت إفراد اليوم ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ ﴾ ورأيت نتيجة العذاب في اليوم الأول ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ مازال فيه ماؤه، مما يبين لك صورة إهلاكهم في اليوم الأول، وحينما تنتقل إلى سورة الحاقة، وهي في المصحف الشريف يقع ترتيبها بعد سور كثيرة من سورة القمر، فسورة القمر في الجزء السابع والعشرين، وسورة الحاقة في الجزء التاسع والعشرين.

وحينما تنتقل لسورة الحاقة، تجد اليوم الذي وقع مفردا في سورة

---

(١)القمر (١٨، ١٩، ٢٠).

(٢)الحاقة (٦، ٧، ٨).

القمر وقع في الحاقة أياما ﴿ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ ﴾ كما أنك تجد تصعيدا في الريح، فهي في القمر ﴿ رِيحٗا صَرۡصَرٗا ﴾ وفي الحاقة ﴿ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ ﴾ وهذا التصعيد ظهرت صورته في الإهلاك ﴿ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ خَاوِيَةٖ ۝٧ ﴾ لقد ذهب التماسك الذي كان والماء الذي كان، وبدا الضعف في أعلى صوره، وكل هذه النظرات العجلى تكشف لك كيف تصاعد المعنى، والأعجب من ذلك أن المعنى الأول وقع في السورة المفتتحة بـ (اقتربت) والمعنى الثاني وقع في السورة المفتتحة بـ(الحاقة)، بالله أستحلفك أترى هذا النسق من ترتيب المعاني، وتناسقها على هذا النمط في كلام بشر؟!!

**إعجاز الترتيب في تصوير الكافرين بالأنعام:**

وقع هذا المعنى في ثلاثة مواضع من الذكر الحكيم على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة ١٧١

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ الأعراف ١٧٩.

قال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ الفرقان ٤٤.

حينما نتدبر التصوير الأول في سورة البقرة نراه واردا على نهج الاحتباك، وتقدير المعنى : مثل الذين كفروا وداعيهم، كمثل الغنم وراعيهم، فقد ((حذف من الأول مثل الداعي لدلالة الناعق عليه ومن الثاني المنعوق به لدلالة المدعوين عليه))[1].

وقد صور القرآن عدم فهم الكافرين، وأنهم في عدم فهمهم كلام الداعي كالغنم في عدم فهمهم كلام الراعي، وهو الوجه الأعلى فيما

(١) نظم الدرر (٢/ ٣٣٣، ٣٣٤).

أرى إذ هذه الصورة تحتمل تسعة أوجه :((الأول: أن المراد ومثل الذين كفروا كمثل المنعوق به من البهائم .. الثاني: أن المراد ومثل الذين كفروا وآلهتهم كمثل الناعق بما لا يسمعه. الثالث: أن المراد ومثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم كمثل الناعق بغنم. الرابع: أن المراد ومثل الذين كفروا في قلة فهمهم وعقلهم كمثل الرعاة يكلمون البهم والبهم لا تعقل شيئا. الخامس: أن المراد ومثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم كمثل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت. السادس: أن المراد بالذين كفروا المتبعون لا التابعون، ومعناه: ومثل الذين كفروا في دعائهم أتباعهم وكون أتباعهم لا يحصل لهم منهم إلا الخيبة والخسران كمثل الناعق بالغنم. السابع: أن المراد مثل داعيهم كمثل الناعق بالبهائم. الثامن: أن المراد ومثل داعيهم إلى الإيمان كمثل الناعق بالأصم الذي لا يسمع من كلام الرافع صوته بكلامه إلا النداء والتصويت. التاسع: أن المراد ومثل الذين كفروا في اتباعهم آباءهم وتقليدهم كمثل الراعي إذا تكلم مع البهائم))[1]. فهذا تصوير لعدم استجابتهم الداعي بصورة البهائم مع الراعي.

أما المعنى في سورة الأعراف فقد اتخذ التصعيد طريقا إذ جاء

(١) انظر في هذا الموضع: الكشاف (١/ ٣٢٨)، والبحر المحيط (١/ ٤٨١، ٤٨٢)، ومفاتيح الغيب (٥/ ٩)، وأنوار التنزيل (١/ ٩٥، ٩٦)، والفتوحات الإلهية (١/ ١٣٧)، وتفسير ابن كثير (١/ ٢٠٤) والأمثال لابن قيم الجوزية، ص (٤٨ : ٥٠)، والبيان عند الشهاب، ص (٨٣)، والقرآن والصور البيانية، ص (٥٥)، وآمالي المرتضى (١/ ٢١٥ : ٢١٩)، والإعجاز البياني في سورة البقرة ماجستير بكلية اللغة العربية بالقاهرة شعبان المهدى من ص (١٦٥ : ١٧١).

التصوير ذروة معنى، وذلك امتدادا لسياق قال فيه البقاعي: ((ولما انقضت هذه القصص فأسفرت عن أن أكثر الخلق هالك صرح بذلك فقال مقسما؛ لأنه لا يكاد يصدق أن الإنسان يكون أضل من البهائم عاطفا على تقديره هؤلاء الذين قصصنا عليكم أخبارهم ذرأنا لجهنم ... ولما كان كأنه قيل: ما لهم رضوا لأنفسهم بطريق جهنم؟ قيل: لهم قلوب، ولما كان السياق للتفكر بدأ بالقلوب))[1]، فقد سبق هذا التشبيه بمقدمات ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ ... ولَهُمْ أَعْيُنٌ ... ولَهُمْ ءَاذَانٌ ...﴾ فأفادت هذه الأبنية تعطيل الانتفاع بهذه الحواس وهو المعنى الذى صوره التشبيه، وجملة أولئك ... ((مستأنفة لابتداء كلام بتفظيع حالهم فجعل حالهم ابتداء كلامهم ليكون أدعى للسامعين))[2]، وقد بدأ الكلام بالقلوب لأن السياق للتفكر، ((ولما كان البصر أعم من السمع؛ لأنه ينتفع به الصغير الذى لا يفهم القول وكذا كل من في حكمه قدمه ... ولما لم يترتب عليها الإبصار النافع في الآخرة الباقية نفي إبصارهم إن كانوا أحد الناس أبصارا، فقال: لا يبصرون أي الآيات المرئية إبصار تفكر واعتبار، ولهم آذان ولما لم يترتب على سمعها ما ينفعهم نفاه على نحو ما مضى فقال: لا يسمعون بها))[3]، وقال: ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ ((للانتقال والترقي في التشبيه في الضلال وعدم الانتفاع بما يمكن الانتفاع به لما كان وجه الشبه المستفاد من قوله :(كالأنعام)

(١)نظم الدرر (٨/ ١٧٢، ١٧٣).
(٢)التحرير والتنوير (٩/ ١٨٤).
(٣)نظم الدرر (٨/ ١٧٣).

يؤول إلى معنى الضلال كان الارتقاء في التشبيه بطريق اسم التفضيل في الضلال ووجه كونهم أضل من الأنعام أنها لا يبلغ بها ضلالها إلى إيقاعها في مهاوى الشقاء الأبدي؛ لأن لها إلهاما تنقضي به عن المهالك كالتردي من الجبال، و﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ تعليل لكونهم أضل من الأنعام وهو بلوغهم حد النهاية في الغفلة وبلوغهم هذا الحد أفيد بصيغة القصر الادعائي، و﴿ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ استعارة ضمنية والغفلة من روادف المشبه به وفي وصف ﴿ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ استعارة مصرحة بأنهم جاهلون أو منكرون وقد وقع التدرج في وصفهم بهذه الأوصاف من نفي انتفاعهم بمداركهم، ثم تشبيههم بالأنعام ثم الترقي إلى أنهم أضل من الأنعام ثم قصر الغفلة عليهم))[١].

أما تصوير الفرقان فقد جاء في سياق الحديث عن أهل مكة وعنادهم، وكان ذكر الأمم السابقة ملخصا جدا قبل التشبيه، وكأن التشبيه جاء خاصا بكفار مكة حيث توجه بالخطاب إلى النبي ﷺ بعد ذكر الأقوام السابقين ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ ﴾[٢] وقد ترقى ها هنا في التعبير بما يناسب هذا السياق فقال مترقيا: بل هم أضل سبيلا، وهو تعبير يناسب ما سبق في السياق من قوله: ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾[٣]، قال برهان الدين:

(١)التحرير والتنوير (٩/ ١٨٤، ١٨٥).

(٢)الفرقان (٤١).

(٣)الفرقان (٤٢).

((ولما انتفي الرد عن الهوى قسرا بالوكالة نفي الرد طوعا بتقبيح الضلالة فذكر المانع منه بقوله معادلا لما قبله منكرا حسبانه لا كونه هو الحاسب، أو أنكر كونه هو الحاسب مع ما له من العقل الرزين والرأي الرصين ويكون تحسب معطوفا على (تكون) في ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ ﴾[1].

وقد ((انتقل في صفة حالهم إلى ما هو أشد من حال الأنعام بأنهم أضل سبيلا))[2]، ((وذلك أن الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره وهؤلاء يعلم أكثرهم أنه معاند فيقدم على النار))[3]، ((ويروى أن الرجل منهم كان يعبد الحجر فإذا رأى أحسن منه رمى به وأخذ آخر، ومنهم الحارث بن قيس السهمى))[4].

وتلحظ الترقي في المعنى بإطلاق الضلال على كل تصرفاتهم، أما هناك في الأعراف فقد كان مقيدا بأنهم أضل من الأنعام، أما هنا فهو مطلق ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾، كما أنه جاء هنا بأسلوب القصر، وفيه توكيد للمعنى، فإذا أضفت إليه الإطلاق كان وصفهم بعدم الفهم قصرا وتصويرا أعلى المواضع، وذروة المعنى الذي جاء في البقرة، ومر بالأعراف.

---

(١) ) نظم الدرر (١٣/ ٣٩٥).

(٢) ) التحرير والتنوير (٩/ ١٨٤، ١٨٥).

(٣) ) الجمان في تشبيهات القرآن، ص (٩٦).

(٤) ) الكشاف (٣/ ٩٣).

**إعجاز الترتيب في معنى حال المنافقين عند ذكر القتال:**

ورد تصوير حالهم عند ذلك في موضعين من القرآن الكريم في سورتين مدنيتين على هذا النحو:

قال تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ الأحزاب ١٨، ١٩

قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾. محمد ٢٠

يفضي بنا تدبر هاتين الصورتين إلى أن ما جاء في سورة محمد أكثر دلالة على الخوف مما في سورة الأحزاب، وذلك لوقوع الفروق في التراكيب في الموضعين، وهذا يعني أن المعنى وقع مرتبا ترتيبا تصاعديا، فقد جاء التشبيه بالكاف، والفعل (تدور) في الأحزاب، ووجود أداة التشبيه معلن أن المعنى على الإلحاق، أي: إلحاق الناقص في الصفة بالكامل بها، أما في سورة محمد فقد حذفت الأداة، فدل ذلك على قوة المشابهة بين طرفي التشبيه، وشيء آخر أنه جاء بالمشبه به

اسما في محمد (نظر المغشي عليه من الموت) أما في الأحزاب فقد جاء بالفعل (كالذي يغشي عليه من الموت).

وما في الأحزاب جاء في سياق الحديث عن غزوة الأحزاب، وقد ملأ الخوف المدينة، وقد كان لتأثير الخوف صورتان، فالمؤمنون (زلزلوا) وهى استعارة تصور مدى فعل الخوف بقلوبهم كما تبين أن قلوبهم في الاطمئنان كالجبال الرواسي، ومع ذلك فقد زلزلها الخوف. أما المنافقون فهم ينظرون إلى محمد ﷺ تدور أعينهم ... وهى صورة تطوى وراءها ضعف قلوبهم وتهافت إيمانهم، وبناء التشبيه يربطه بالسياق، فهذه الأعين الدائرة تنظر ما حولها في المعركة فالموقف مشحون بالخوف، ولو قال القرآن هنا: ينظرون إليك كالذي يغشى عليه لفسد النظم فجملة ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ تلائم هذا الموقف الذى وصفه القرآن بقوله: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾[1] وزيغ الأبصار يقارب دوران الأعين في وصف المنافقين، وبلوغ القلوب الحناجر يقارب الذى يغشى عليه من الموت كأن الموقف يصف حالين للمؤمنين، وحالين للمنافقين، وتحديد المشبه به بالذي يغشى عليه، يصور لك أثر الخوف في عيونهم، وأجسادهم، والموقف في سورة محمد غير هذا الموقف فهناك جلوس، ومحاورة، وتمن للأمر بالقتال .... الخ والأثر هناك يظهر في أعينهم؛ لذلك قال هناك:

(١) الأحزاب (١٠).

﴿ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ...﴾ ليحدد لك زاوية بعينها في المشبه به، ولكن الموقف في الأحزاب اقتضى تصوير أثر الخوف في أعينهم، وأجسادهم فقال: ﴿ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ... ﴾.

ولقوله: ﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ ﴾ قول مقارب في الأحزاب ﴿ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ وهو من خصوصيات هذا التشبيه ((وأصله تدور أحداقهم في أعينهم؛ ولكنه لشدة هذا الدوران، وسرعة هذا التقلّب خيل أن العيون كلها تدور، فليس الدوران دوران المحاجر، والأحداق ولكنه دوران العيون حتى الجفون والأهداب وهذا لون من صفة البيان يسميه أهل الفن إطلاق المحل على الحال، وهو ضرب من المجاز المرسل ... وقد آثره لقوة تصوير الحركة الدائبة حيث تظهر في الدوران أكثر من ظهورها في التقلب أو الالتفات، فإن الدوران من الكلمات المصورة لمعناها بهيئتها ... ومجيئها على صيغة المضارع ... تلك الصيغة الكاشفة التي تصف الحدث وهو يقع أتم وصف، وتبينه أبلغ بيان وعليك أن ترجع إلى نفسك وأن تردد كلمة تدور ثم تبصر ما تجد ... سوف ترى في خيالك هذه العيون في حركتها الدائبة اللاهثة تدور، وتدور وهذا الدوران مستمر لا يزول، ما دام الخوف قد جاء إلى أن يزول فلن تهدأ هذه الحركة إلا إذا ذهب الخوف، وحينئذ ينتهى دور العيون الشاخصة ليبدأ دور الألسنة الحداد، وقوله: (كالذي ...) أضفى على هذا الدوران الدائب اللاهث وصف الضعف والتخاذل والفتور، فليس هذا الدوران والدأب من العيون أمارة الحيوية والحياة، وإنما هو مظهر الموت والاستسلام وما أروع كلمة (يغشى) حيث غشت حركة

عيونهم واضطرابهم بغشاء المسجى الذى خذلته غشاه، وهم بفراقه نبض القوة والحياة ... وهذه صورة فزع وهول تتزاحم فيها عناصر الخوف والرعب، ففيها المحاجر الجاحظة من سرعة التقلب، والوله والحيرة، وفيها الرجل المسجى الذى يعالج الموت وقبل ذلك فيها الخوف المتسلط الرهيب))[1].

أما تشبيه سورة محمد فلم يرد في سياق الخوف، ولا في سياق المعركة كالذي في سورة الأحزاب لذلك نقل هنا أثر ذكر القتال في النظر فقط، وقد جاء هذا التشبيه في سياق تمني المؤمنين للقتال ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ ... ﴾ وفي النظم الكريم أمر بالقتال لكنه لم يذكر صراحة، وإنما دل عليه بقوله: ﴿ ذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ ﴾ والموقف هاهنا يوحي بالهدوء التام وغياب الخوف الذي كان هناك في سورة الأحزاب.

وقد وقع التشبيه جواب شرط فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال وهذا الشرط هو الذى حدد الظرف وكل ذلك بيّن سرعة ظهور أثر ذكر القتال على أفئدتهم والرؤية بصرية مما فضح أمرهم، وجعله ظاهرا للعيون وحسبك من حوار بأن يكون المنافق ناظرا نظر المغشى عليه من الموت عند ذكر القتال أمامه، لأن بهم مرضا في قلوبهم كما تقول الآية ..

وترى التشبيه هنا ركز على أعينهم لأن ذلك الخوف يظهر فيها،

(١)تفسير سورة الأحزاب د/ محمد أبو موسى (٧٩، ٨٠).

ولو استحضرت الموقف أمامك لوجدت أثر الخوف لا يظهر إلا في النظر، فلم يحتج التشبيه هنا إلى دوران الأعين كما كان في الأحزاب لأن المقام في ذكر القتال وهناك هو أشد القتال ثم إن هذا التشبيه لا يستمر، وإنما هو يزول بزوال ذكر القتال فلا يظهر، في أعينهم خوف إلا لمفاجأة ذكر القتال لذلك قال هنا: ﴿ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ ﴾ أي نظرا كنظر المغشي فهي صورة لهم لا تستمر كثيرا على ما فيها من قوة المشابهة بين النظرين، ولما في ذلك من دلالة على ضعفهم، واستشراء خوارهم في الخوف كالمغشي عليه من الموت، وقال هنا: كالمغشي عليه بصيغة الاسم الدال على الثبوت والدوام، وقال هناك: كالذي يغشى عليه؛ لأنه هناك قيد للنظر بحال تدل على استمرار الحركة (تدور) فجيء بموصول وليه فعل يدل على استمرار الحركة في المشبه به، ولو قال هنا: ينظرون إليك كالذي يغشى ... لما ناسب ما قبله فليس في السياق ما يدل على استمرار الحركة كما كان في السياق هناك. ويبدو أن المشابهة بين نظرهم ونظر المغشى عليه كانت قوية بحيث ينحي الأسلوب ما يدل على التشبيه ظاهرا، وقد وقع المعنى على وجه الترتيب التصاعدي، فبين حالهم من الخوف وقت المعركة بالتشبيه المذكور الأداة، وفي محمد بين حالهم من الخوف بمجرد ذكر القتال، فالتصوير في محمد أدل على شدة الخوف من التصوير في سورة الأحزاب.

## المبحث الثاني : الترتيب التنازلي للمعنى.

### إعجاز الترتيب في آيات التحدي

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٣

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ يونس: ٣٨

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ هود: ١٣

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء: ٨٨

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الطور: ٣٣ – ٣٤

الذي يتابع رحلة المعنى في السور الخمس يبصر الترتيب التنازلي في التحدي، وكلما كان القدر المتحدى به أقل كلما كان أظهر لعجز المتحدى، فالمتحدى به في سورة البقرة ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ التحدي :أن يأتوا بسورة تشبه سورة شبيهة، فإذا ثبت العجز عن شبيه الشبيه كان عجزهم عن الإتيان بالشبيه أولى، ومطلع الآية (وإن كنتم في ريب) أي أدنى ريب يذهبه الحد الأدنى من التحدي، وهو ناظر إلى مطلع السورة الكريمة ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ﴾ والريب ـ كما قال الكفوي ـ شك ، والافتراء اختلاق، وهو أعظم الكذب، والمتحدى به

في سورة يونس هو ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ أن يأتوا بسورة شبيهة بسورة من القرآن، والآية مطلعها (افتراه) فاتسع قدر المتحدى به، فما في يونس يلي ما في البقرة في الترتيب التنازلي بالنسبة للمتحدَّى، والترتيب التصاعدي بالنسبة للمتحدى به، ثم اتسع قدر المتحدى به في سورة هود، من سورة إلى عشر مفتريات، وهو يمضي في الاتجاه نفسه في الترتيب التنازلي من جهة المتحدَّى، والتصاعدي بالنسبة للقدر المتحدى به، ثم جاءت آية الإسراء لتمضي في الترتيب ذاته، في توسيع قدر المتحدى به حتى يشمل القرآن كله، (على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) أوردت الآية التحدي أوسع نطاقا مع ارتفاع نبرة التحدي المنتهي بفشل المتحدَّى حتى لو اجتمع الإنس والجن وظاهر بعضهم بعضا، وهو غير التحدي في البقرة المكتفي بقوله: ﴿ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ وفي سورة الطور ، افتتح التحدي بحكاية رميهم رسول الله بتقول القرآن، لما لم يلق رميهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه شاعر أو مجنون ، فكان التحدي ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ فكما قال أهل العلم: تحداهم بالإتيان بالمثل في التنجيم والتطبيق على الوقائع سورا أو آيات أو دون ذلك، تحدث وتتجدد شيئا في أثر شيء ، فجاء ترتيب المعنى على أحسن وجه وأحكمه، فالتحدي جاء على هذا النحو : سورة من شبيه الشبيه، أو سورة شبيهة، أو عشر سور شبيهة، أو قرآنا كالقرآن مجموعا ، أو قرآنا كالقرآن مفرقا.

**إعجاز الترتيب في تصوير سرعة وقوع الساعة الكبرى:**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ النحل: ٧٧

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ القمر: ٤٩ – ٥٠

ورد تصوير سرعة وقوع الساعة بالتشبيه في هذين الموضعين من كتاب الله، وبالنظر في التشبيهين (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) و (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) يتبين أن الفرق الظاهر بينهما خلو الباء من تشبيه النحل (كلمح البصر) ووجودها في تشبيه القمر (كلمح بالبصر) وجود العطف بأو في سورة النحل (أو هو أقرب) وعدم وجود ذلك في سورة القمر، وفي المعاجم اللغوية أن: لمح البصر : أي امتد إلى الشيء، ولمحه ببصره : صوبه إليه، وهذا يعني أن الوقت الذي يستغرقه التركيب الأول أقل فهو خطفة بصر، وأن الوقت الذي يستغرقه التركيب الثاني : لمح ببصره أطول وهما متقاربان، إلا أن ما في سورة النحل زمنه أقصر وما في سورة القمر زمنه أطول، لذا ساغ العطف على ما في سورة النحل (أو هو أقرب) وهو ترق تصاعدي في المعنى، فـ (أو) هنا بمعنى بل وهي للإضراب الانتقالي مثلها مثل ما جاء في قوله تعالى :(فأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) أي : بل يزيدون، وقوله :(فهي كالحجارة أو أشد قسوة) أي : بل أشد قسوة، وكل هذا مما يبين أن دلالة تشبيه سرعة وقوع الساعة في النحل أقصر زمنا، وأسرع وقوعا، وأن ما في سورة القمر أطول زمنا مما في سورة النحل، وقد نظر كل تركيب إلى مطلع السورة فالأقل زمنا جاء في

سورة مطلعها ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ والأطول زمنا جاء في سورة مطلعها (اقتربت الساعة وانشق القمر) والتركيبان متقاربان تقارب تراكيب المطلعين، وقد جاء التعبير عن زمن السرعة الأقل في سورة النحل وهي في ترتيب المصحف تقع قبل سورة القمر، وجاء الأطول في القمر وهي تقع في ترتيب المصحف بعد سورة النجم، وهو من ترتيب المعنى تنازليا، وهو عمود من عمد ترتيب المعنى الواحد في الذكر الحكيم.

**إعجاز الترتيب في صورة المستكبر عن آيات الله عند تلاوتها.**

وقع ذلك في موضعين من كتاب الله ـ عز وعلا ـ على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1].

قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ ﴾[2].

جاء المعنى على نهج الترتيب التنازلي، فجاء بالأدل على الاستكبار والإباء أولا في سورة لقمان، وهي تقع في الجزء الحادي والعشرين، ثم جاء بالأقل دلالة على ذلك ثانيا في سورة الجاثية، وهي تقع في الجزء الخامس والعشرين، فقد بين صورة التولي والاستكبار في لقمان بتشبيهين ﴿ كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾، ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ وكأن التشبيه الثاني تعليل للتشبيه الأول، أما ما ورد في سورة الجاثية فقد وقع بتشبيه واحد، فكان المعنى في الإعراض أقل دلالة منه في لقمان.

ويعد الخطيب الإسكافي قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُصِرُّ ﴾ منبئا عن قوله: ﴿ كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ قال: ((لأن الإصرار عزم لا يتهم معه بإقلاع، فإذا أصر على التصام فهو كمن في أذنيه وقر فصار أحد اللفظين يغنى

(١) لقمان (٧).

(٢) الجاثية (٧، ٨).

عن الآخر ... وكان الموضع الذى ذكر فيه ﴿ وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرًا ﴾ أحق بقوله: ﴿ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرًا ﴾ والموضع الذى ذكر فيه الإصرار على ترك الاستماع أغنى عن ذكر كأن في أذنيه وقرا))[1].

ويجيب الغرناطي عن اختصاص آية لقمان بالتشبيه الثاني قائلا: ((للسائل أن يسأل عن تخصيص آية لقمان بقوله: ﴿ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرًا ﴾ والجواب ... أن آية الجاثية كما تقدم فيها ﴿ وَيۡلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ ﴾ فوصفه بسماع آيات الله لم يكن لمطابقة ذكر الوقر في الأذن؛ لأنه قد ذكر سماعه الآيات والوقر مانع ... فإن قيل: لو ذكر هنا الوقر في الأذنين لم يكن ليكون إلا تأكيدًا لبيان توليه وإعراضه فكان يناسب قلت: لو وكد بذلك لاقتضى مقاربة عدم السماع، وليس المراد – والله أعلم – إلا أنه سمع وأعرض، فكأنه لم يسمع ليجري الوارد هنا مع قوله فيمن صمم على كفره من يهود :(وقد كان فريق منهم ...)، وإذا أريد إبقاء سماعهم، ولم يرد منعه البتة لم يناسبه التأكيد المقرب من المنع من أن التنبيه الواقع مراد، ولما لم يقع ذكر سماع الآيات في آية لقمان، وتقدم ذكر المشار إليه فيها بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي... ﴾ وهذه زيادة مرتكب فناسبها ذكر زيادة الوقر مع أنه لم يرد

(١) درة التنزيل (٤٣٧، ٤٣٨).

فيها ذكر سماعه الآيات كما ورد في آية الجائية))[1].

((وجل المفسرين على أن الآيتين نزلتا في النضر بن الحارث. وقوله: ﴿ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا ﴾ مبالغة في ذمه؛ لتركه استماع القرآن .... ولم يبالغ في الجاثية هذه المبالغة لما ذكره بعد من قوله :(وإذا علم ...)؛ لأن ذلك العلم لا يحصل إلا بالسماع، أو ما يقوم مقامه من خط وغيره))[2].

وقد لاح لك بذلك سر اختصاص ذلك بالسياق كما تبين لك أن ما في لقمان أكثر مبالغة مما في الجاثية وأن ترتيب المعنى ترتيب تنازلي.

(١) ملاك التأويل (٢/ ٩٤١، ٩٤٢).

(٢) ) بصائر ذوى التمييز (١/ ٣٧١).

**إعجاز الترتيب في تصوير سعة الجنة:**

وقع تصوير سعة الجنة في موضعين من الكتاب العزيز على النحو الآتي:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ آل عمران: ١٣٣

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١ ﴾ الحديد: ٢١

الناظر في التصويرين يتبين له أن سعة الجنة في سورة آل عمران أكثر رحابة فعرضها عرض سموات سبع، والجنة في سورة الحديد عرضها عرض سماء واحد، وهذا يعني أن المعنى جاء على نهج الترتيب التنازلي ، ويؤكد ذلك أن التشبيه في سورة آل عمران محذوف الأداة، وتشبيه الحديد مذكور الأداة فالأول أبلغ من حيث المعنى من الثاني، وهذا الفرق الكبير بين سعة الجنة في الموضعين، تلاءم مع فعل الأمر في كل منهما، (سابقوا) و(سارعوا) ومع الموعودين بهذا الأجر، فالسياق في سورة آل عمران سياق قوم مبشرين بالجنة وهم أهل بدر، وجنة تشبيه آل عمران : ﴿ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾، وينبئك هذا التعبير عن علة القالب البلاغي الذى صيغ فيه التشبيه فالمؤمنون أنواع، والجنة أنواع أيضا كما أفاض في ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1].

وفي الحديث: ((إن في الجنة مائة درجة، ولو أن العاملين اجتمعوا في إحداهن وسعتهم))[2].

وقد ذكر القرآن الكريم أوصاف هؤلاء المتقين في السياق بعد ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[3]، فتنوع الأجر لتنوع العمل. ولكن العاملين في سورة الحديد وصفوا بوصف قريب ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾

وقد وقع الفعل ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ ﴾ معطوفا على قوله: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ ...﴾ أي لا تكفروا بطاعتهما، ولاستخدام هذا الفعل (سارعوا) ملمح لطيف؛ فإن الإسراع يكون بسبب ذاتي، والتسابق يكون بأثر خارجي، ((فأصل السبق التقدم في السير، ويستعار لإحراز الفضل، والتبريز،

(١)النساء (٩٥، ٩٦).
(٢)حادي الأرواح، ص (٥٥).
(٣)آل عمران (١٣٤، ١٣٥).

والسرعة ضد البطء))[١]، ((والسرعة نقيض البطء... ويقال: أسرع فلان المشي والكتابة، وغيرها، وهو فعل مجاوز، ويقال أسرع إلى كذا وكذا، يريدون أسرع المضي إليه وسبقت الخيل، وسابقت بينها إذا أرسلتها وعليها فرسانها لننظر أيها يسبق))[٢].

فسارع تدل على المشاركة، وسابق تدل عليها، وتوهم بوضع الجائزة المضروبة للفائز بالسبق واستخدام فعل (المسارعة) هو الملائم لهذا السياق فليس المخاطبون هاهنا محتاجين في الأمر بالطاعة لما احتاج إليه المخاطبون هناك في الحديد، فالسياق للمتقين، ولما كان السياق سياقهم بالغ القرآن في تشبيه سعة الجنة بتشبيه محذوف الأداة والوجه، وجمع السموات، وهو جمع مقصود؛ لأن قوة المبالغة، وقوة المشابهة يطلبهما السياق فاختلاف فعلي الأمر أنبأ عن اختلاف الأجرين، واختلاف العاملين أدى إلى زيادة الأجر؛ فهو في آل عمران أجر معدّ لمن ينفق في السراء والضراء، وفي الحديد أجر معدّ لمن احتيج في أمره بالبذل لأن يذكر بأنه مستخلف في ماله، وعليه أن ينفق، وأن نفقته على سبيل القرض، فالمؤمنون في آل عمران أرقى درجة، وأعلى إيمانا منهم في سورة الحديد.

(١) المفردات في غريب القرآن، ص (٢٢، ٢٣٠).

(٢) لسان العرب (٢/ ١٩٩٤، ١٩٢٨).

## المبحث الثالث: ترتيب العموم والخصوص

### إعجاز الترتيب في معنى التعقيب على كون الأنبياء جميعا أمة واحدة:

وقع التعقيب على هذا المعنى في سورتي الأنبياء والمؤمنين في الآيتين الآتيتين:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ الأنبياء: ٩٢

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ المؤمنون: ٥١ – ٥٢

حينما نتدبر ختم الآيتين ﴿ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾ و﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ يتجلى لنا أن المعنى في سورة الأنبياء أعم، والمعنى في سورة (المؤمنون) أخص، وأن الذكر الحكيم قد أتى بالأعم أولا، ثم أتى بالأخص ثانيا، والعبادة " غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الامتثال وهو الله تعالى" [1]، والتقوى " حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور، ويتم ذلك بترك بعض المباحات"[2]، وعليه فإن ما جاء في سورة (المؤمنون) تصعيد للمعنى المذكور في سورة الأنبياء، وما وقع في الأنبياء جاء ملائما لاسم السورة، فدعوة الأنبياء جميعا للعبادة كما جاء في قوله ـ تعالى ـ ﴿ وَمَا

(١) المفردات للراغب الأصفهاني ٣١٩ .
(٢)السابق ٥٣١ .

خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الذاريات/ ٥٦) فالمعنى : فاعبدون، أي : دون غيري، فإنه لا كفؤ لي، كما أنه ملائم لمقصود السورة الذي هو " الاستدلال على تحقق الساعة وقربها ولو بالموت، ووقوع الحساب فيها على الجليل والحقير، لأن موجدها لا شريك له يعوقه عنها"[١]، وللبقاعي إشارة لطيفة ذكرها في سورة (المؤمنون) حيث قال :"ولما كان الخطاب في هذه السورة كلها للخلص من الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين، قال: ﴿ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين غضبي وقاية من جمع عبادي بالدعاء إلى وحدانيتي بلا فرقة أصلا، بخلاف سورة الأنبياء المصدرة بالناس، فإن مطلق العبرة أولى بدعوتها"[٢]، فرتب القرآن الحكيم المطلق العام أولا ثم الخاص ثانيا، فجرى عمود المعنى على هذا الترتيب.

(١)نظم الدرر ٥/ ٦٣.

(٢)السابق ٥/ ٢٠٦.

**وختاما:**

فهذا عمل معروض على أهل العلم ربما يجدون فيه صوابا، فيكون إرشادهم عطاء لي، وربما يكون كله خطأ فيكون نصحهم تاجا لي، ولاتزال مأدبة الله معطاءة ما بقي نفس في بشر، وقد رأينا ثلاثة وجوه في ترتيب المعنى الواحد في الذكر الحكيم، وما من ريب أن هناك وجوها أخر، وحسبي أنني أول طارق ـ فيما أحسب ـ هذا الباب، راجيا الله التوفيق والسداد ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته.

وكتبه

**إبراهيم صلاح الهدهد**

في السابع والعشرين من رمضان المبارك١٤٤١هـ